

آليات المنهج التداولي في تحليل النص الأدبي

الدكتورة: حورية رزقي

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

إذا كان الأدب النتاج الإبداعي الأكثر سحرا وتأثيرا وإمتاعا من بين الفنون الإبداعية فإنّ من البدهي أن تكون للنقد أهمية توازي أهمية الموضوع الأساس وتضارعه، فإنّ أحسن اختيار النص واختيار المنهج النقدي الملائم للدراسة سيسكلا- لا محالة- جناحي الإبداع.

ومن المناهج المتبعة في التحليل والدراسة: (المنهج التداولي)، وقد لاحظنا في بحوث الطلبة انتهاجهم هذا المنحى في الدراسة والتحليل، ولكن وجدنا بعض القصور أثناء التطبيق، وخطا بين المنهج والمقاربة.

وعليه يطرح الإشكال الآتي:

هل التداولية منهج أم مقاربة؟

وانطلاقا مما سبق نحاول توضيح الفرق بين الطرحين مبرزين الآليات المتبعة

لتحليل نص تحليلا تداوليا، وفق العناصر الآتية:

تعريف المنهج التداولي

تعريف المقاربة التداولية

آليات التحليل التداولي

إعطاء نماذج توضيحية

والهدف المتوخى من المداخلة: التوصل إلى معرفة تطبيق المنهج التداولي تطبيقا

صحيحا وموفقا كما ورد عند منظري اللسانيات التداولية.

فما هي التداولية؟ وهل يمكن أن تكون منهجا؟

تعريف التداولية

لعل أقدم مفهوم للتداولية ما جاء في تعريف الفيلسوف الأمريكي (تشارلز موريس Charles Moris) الذي استخدمه سنة 1938، على أنه "فرع من فروع علم العلامات، إذ إن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلامة ومستعملي هذه العلامات"¹. وقد لاحظنا كثرة المفاهيم ونشعب التعريفات لهذا الاتجاه، إذ يمكن القول بوجود تداوليات؛ تداولية اللسانيين، وتداولية البلاغيين، وتداولية المناطقة، والفلاسفة، مما يجعل عملية حصره بدقة إجراء يكتسي صعوبة تقنية². ومنه تعددت مفاهيمها، فهناك من عرفها أنها "اتجاه في الدراسات اللسانية، يعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ ولاسيما المضامين، والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق"³. ومنهم من حدد لها معطيات وتمثل في:

- معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث اللغوي.
- الوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.

- المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وأثر النص الكلامي فيها⁴.
ومنهم من يلخص التداولية في دراسة الآثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، وتتنظر في عنصر الذاتية للخطاب، ويشمل هذا التداول ضمائر الشخص ومبهمات الزمان والمكان، وينظر في الجانب الضمني والتلميحي، والحجاجي للكلام، والسياق يفرض على الباحث احترام مجموعة من قوانين الخطاب في أثناء مخاطبته للآخر⁵. وترى (فرانسواز أرمينكو Françoise Armingaud) أن التداولية "ظاهرة خطابية وتواصلية، واجتماعية، وعرفها (آن ماري ديلر Anne-Marie Diller)، و (فرانسوا ريكاناتي François Récanati)" أنها دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية⁶.

ويدل هذا على أن التداولية توفر لنا الآليات المناسبة التي تخولنا كشف مضامين الخطاب، وسبر أغواره، وتمكّن الفرد من ملكة تحليل البنى التي يتركب منها النص.

ومنهم من يعطيها مفهوما عاما بقوله: "إن التداولية أحدث فروع العلوم اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام"⁷.

وعليه فهي دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل، فالمعنى غير مقتصر على المتكلم أو المخاطب، أو متávلا في الكلمات، وإنما يشمل الكل أثناء تداول اللغة بين مستعمليها وفي سياق محدد.

أما منطلقاتها الأولى فتعود إلى أعمال فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد (Oxford) وهم: جون أوستين John Austin، وجون سيرل John Searle، وبول غرايس (H. Paul Grice)، حيث وضعوا نواة التداولية، ونشروا بحوثا فتحت آفاقا واسعة، فتولدت عنها أسئلة واهتمامات كانت مسوغة للاعتراف بالتداولية بوصفها أحدث بحث أفرزته اللسانيات الحديثة.

وتوضح الدراسات أن (أوستين) عندما ألقى "محاضرات وليام جيمس" عام 1955 لم يكن يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات، فلقد كان هدفه تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة، بيد أن تلك المحاضرات كانت بوتقة التداولية اللسانية وانطلق من ملاحظة بسيطة، مفادها أن كثيرا من الجمل التي ليست استفهامية أو تعجبية أو أمرية، لا تصف مع ذلك أي شيء، ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، فهي لا تستعمل لوصف الواقع بل لتغييره، فجملة (أمرك بالصمت) يسعى قائلها إلى فرض الصمت على مخاطبه، أي ينتقل من حالة ضجيج إلى حالة سكون⁸.

وانطلاقا من هذه الملاحظات توصل (أوستين) إلى تقسيم الجمل إلى وصفية وإنشائية؛ فالوصفية هي التي تقابل في العربية (الجمل الخبرية)، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، فهي صادقة إذا كان الوضع الذي تصفه قد تحقق فعلا في الكون وهي كاذبة بخلاف ذلك، وتتفرد الجمل الإنشائية بعدد معين من الخصائص لا توجد في الجمل الوصفية، من ذلك أنها تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال، وتتضمن فعلا من قبيل (أمر) و(وعد) و(أقسم)... ويفيد معناها على وجه الدقة إنجاز عمل وتسمى هذه الأفعال أفعالا إنشائية... لا تقبل الحكم عليها بمعيار الصدق والكذب، بل يتم الحكم عليها بمعيار التوفيق والإخفاق⁹.

وقد ظن أوستين في البداية أن هذا التقسيم بسيط، ولكنه اكتشف بعد ذلك أن بعض الجمل الإنشائية غير مستندة لضمير المتكلم في زمن الحال، ولا تتضمن فعلا إنشائيا مثل: (رفعت الجلسة)، وقد قادت هذه الملاحظة إلى تمييز جديد لا يزال مقبولا إلى يومنا هذا، فهو يقرّ بأن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، وميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية؛ العمل القولي، والعمل المتضمن في القول، وعمل التأثير بالقول¹⁰.

" وهكذا تخلى أوستين في هذه المرحلة الثانية عن تمييز الجمل الإنشائية من الجمل الوصفية، ... وأقر بأن كل جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وتوافق أحيانا كذلك القيام بعمل تأثير بالقول وأفرد محاضراته الأخيرة لتصنيف مختلف أنواع الأعمال المتضمنة في القول¹¹.
وقام (أوستين) بتصنيف الأفعال الكلامية على أساس قوتها الإنجازية إلى:

1- أفعال الحكم verdictifs

2- أفعال الممارسة exercitifs

3- أفعال السلوك comportatifs

4- أفعال الوعد promissifs

5- أفعال العرض expositifs¹²

إلا أن تلميذه (سيرل) اقترح تصنيفات أخرى للأفعال الكلامية بعد أن لمس بعض الاضطرابات في تصنيف (أوستين)، وجعلها خمسة أصناف حسب القوة الإنجازية للأفعال الكلامية، وهي:

1- أفعال تمثيلية Représentatifs

2- أفعال توجيهية Directifs

3- أفعال التزامية Commisifs

4- أفعال تعبيرية Expressifs

5- أفعال إعلانية Déclaratifs¹³

ثم تباينت الآراء حول الفعل الإنجازي من قبل لغويين أتوا بعد "أوستين" و"سيرل" وركز اللسانيون في مجال الدرس التداولي على طائفة من الجوانب مثل:

- المعيّبات Déictiques: وهي العناصر الهامة في اللغة والتي لا يستطيع تفسيرها بمعزل عن المقام، لأن في كل اللغات كلمات وتعبيرات تعتمد كلياً عليه ولا يتحدد معناها إلا في إطاره، وتشمل الضمائر وأسماء الإشارة، وزمان الفعل، وبعض ظروف المكان والزمان، نحو: أنا، وأنت، وهنا، وهناك، والآن وغدا والأمس ...

- الافتراض المسبق Présupposition: وهو مفهوم تداولي حيث إن المعنى المستنتج ضمن محادثة ما يكون معلوماً للمتكلم والمخاطب.

- الاستلزام الحواري Conversationnel Implicature: ويمثل جانباً مهماً في الدرس التداولي وهو نقيض الافتراض المسبق، فإذا كان المعنى المستنتج غير معروف للمخاطب مسبقاً فإن الاستنتاج يدخل في إطار الاستلزام الحواري أو ما يعرف بتضمن المحادثة.

- الأفعال الكلامية Les actes de langage: وقد أسس هذه النظرية الفيلسوف الإنجليزي (أوستين)، فهو يرى أن وظيفة اللغة الأساسية ليست إيصال المعلومات والتعبير عن الأفكار، إنما هي مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية¹⁴.

كما تعد هذه النظرية من الموضوعات الهامة في الدرس التداولي، وأفعال الكلام ما ينجزه المتكلم، فبمجرد التلفظ في سياق مناسب ينجز عملاً، وتوظف في مواقف تعبيرية حسب سياق التلفظ، كطلب تنفيذ أمر ما، أو طلب الاعتذار، أو تمني، أو رجاء، وهكذا وقد تتحقق هذه الأفعال وتكون موفقة، أو لا تتحقق فنقول أخفق المتكلم في إنجاز فعل القول.

المنهج التداولي

يعدّ المنهج التداولي من أحدث المناهج النقدية التي تناولها الباحثون في تحليل النصوص وفق آلياتها الأنفة الذكر؛ المعيّبات، ومتضمنات القول، وأفعال الكلام، والاستلزام الحواري...، حيث يقوم هذا المنهج على دراسة استعمال اللغة في إطار العلاقة بين المتكلم والمخاطب.

وقد لاحظنا تبايناً في الآراء؛ هل التداولية منهج أم مقارنة؟

نجد (عمر بلخير) وهو يتحدث في مقال له بعنوان "إجراءات التحليل التداولي للخطاب" يقول: "إنه لمن الممتع حقاً، أن نحلل نصاً ما، ما بالوقوف على إجراءات المنهج

التداولي نظراً لما توفره لنا التداولية من إجراءات، بعدما استطاع منظرون أمثال أوستين وسيرل وجرايس وبنفيسست، أن يفتحوا أفقاً جديدة وسُبلًا واسعة في النظر إلى اللغة،¹⁵ كما يرى (رضوان الرقيبي) أن "المنهج التداولي هو مستوى تصنيف إجرائي في الدراسات اللغوية يتجاوز دراسة المستوى الدلالي، ويبحث عن علاقة العلامات اللغوية بمؤوليتها، مما يبرز أهمية دراسة اللغة عند استعمالها، ومن ثم فإنه يعنى بدراسة مقاصد المتكلم؛ وكيف يستطيع المرسل أن يبلغها في مستوى يتجاوز مستوى دلالة المقولة الحرفية، كما يعنى المنهج التداولي بكيفية توظيف المرسل للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين، حتى يجعل انجازه ملائماً لذلك السياق"¹⁶.

وهناك من يرى أن التداولية اتجاهاً في البحث اللغوي، وتتميز بما يأتي:

- التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي أو هي لسانيات الاستعمال اللغوي. وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يولد المعنى.
- ليس للتداولية وحدات تحليل خاصة بها ولا موضوعات مترابطة.
- التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة: معرفية واجتماعية، ثقافية.
- تعد التداولية نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة وبينها وبين لسانيات التروة اللغوية¹⁷.

أما الذين لم يروها منهجاً فمسوغاتهم كالآتي:

- صعوبة تحديد مفهومها؛ فالتداولية لا تنتمي إلى أي مستوى من المستويات البنية اللغوية، فهي تحويها جميعاً.
- ليس لها وحدات للتحليل.
- تعدّ ملتقى لكثير من العلوم؛ تلتقي مع علم الدلالة، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وتحليل الخطاب...
- عدم استقرارها على مصطلح واحد يجمع أهم مجالاتها.

"وعلى العموم فالمنهج التداولي هو مستوى تصنيف إجرائي في الدراسات اللغوية يتجاوز دراسة المستوى الدلالي، ويبحث عن علاقة العلامات اللغوية بمؤوليتها، مما يبرز أهمية دراسة اللغة عند استعمالها، ومن ثم فإنه يعنى بدراسة مقاصد المتكلم؛ وكيف يستطيع

المرسل أن يبلغها في مستوى يتجاوز مستوى دلالة المقولة الحرفية، كما يعنى المنهج التداولي بكيفية توظيف المرسل للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين، حتى يجعل إنجازها ملائماً لذلك السياق¹⁸.

وعليه لا يعدّ التحليل تداولياً إلا إذا تناول الدارس كل الإجراءات التي جاءت بها التداولية، وذلك بربط إنجازها اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه، فمنها ما هو ذاتي مثل مقاصد المتكلم ومعتقداته، وكذلك اهتماماته ورغباته، ومنها أيضاً المكونات الموضوعية؛ أي الوقائع الخارجية، مثل زمن القول ومكانه، وكذلك العلاقة بين طرفي الخطاب. وتساهم هذه العناصر في تحديد الدلالة عند المتلقي، إذ يعتمد عليها في تأويل الخطاب في سياق معين، كما يعين على معرفة أثر السياق في لغة الخطاب عند إنتاجه¹⁹.

أما مصطلح المقاربة ففي اللغة يرجع معناه إلى: "الدنو والاقتراب، مع السداد وملامسة الحق، فيقال: قارب فلان فلانا إذا دناه، ويقال قارب الشيء إذا صدق وترك الغلو، ويقال قاربه مقارنة بمعنى حادثه بكلام حسن"²⁰.

وتعني كلمة المقاربة في المجال التربوي أنها كيفية دراسة مشكل أو معالجته، أو بلوغ غاية، وترتبط بنظرة الدارس إلى العالم الفكري وترتكز كل مقارنة على استراتيجية العمل إما من الناحية النظرية (استراتيجية، وطريقة، وتقنية)، أو الناحية التطبيقية (إجراء، وصيغة وصفة)²¹.

وعليه فالمقاربة هي الطريقة، أو مجموعة من التصورات التي يتناول بها الباحث الموضوع سواء من ناحية تصور منهاج أو التخطيط له وتقديمه.

ويستطيع الباحث أن يتناول النص الأدبي من منظور مقارنة تداولية.

ومن النماذج التوضيحية في تحليل نص تحليلًا تداولياً نورد الحديث النبوي الآتي:
عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ". فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: "يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ". قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: "يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ". قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: "فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ"²².

فمن خلال الحوار الوارد في هذا الحديث ضمن مبدأ التعاون عند (بول غرايس)

يتضح لنا أن إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت:

واضحة ← الطريقة.

وصادقة ← ← الكيف.

واستخدم القدر المطلوب من الكلمات دون إطالة ← ← الكم.

وإجابته ذات صلة وثيقة باستفسار السائلين ← ← المناسبة.

فوضح المبلِّغ للمتلقين كل أبواب الخير التي غابت عنهم، وأرشدهم إليها وفق القواعد السلوكية السابقة.

كذلك تعد المعيّنات أو الإشارات من أهم العناصر اللغوية التي يتحدّد معناها في إطار المقام؛ كالضمائر وأسماء الإشارة وأسماء الموصول والنداء وأسماء المكان والزمان، وقد يجمع خطابا واحدا مجموعة من المعيّنات الدالة على المكان والزمان، وعلى الموصول والإشارة، كما ورد في الحديث الآتي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هُوَ لَاءَ بَوَجْهِهِ، وَهُوَ لَاءَ بَوَجْهِهِ"²³.
فتضمن:

- المعينات الزمانية ← ← يوم القيامة ← ← في زمنه يقع الفعل.

- المعينات المكانية ← ← عند الله ← ← في حضرته تعالى يتحقق الفعل.

- اسم الموصول ← ← الذي (يأتي) ← ← يعين صاحب الفعل.

- اسم الإشارة ← ← هؤلاء ← ← يشير إلى هدف الفعل.

وتمثل هذه المعيّنات الإشارية درجة من درجات التحليل التداولي، حيث تظهر مدى حضور المبلِّغ والسياق الزماني والمكاني، أما بقية المعيّنات في الخطاب، فقد يُطلق عليها اسم (مبهمات) أو (متحولات)، وهي "العلامات اللغوية التي لا يتحدّد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي؛ لأنها خالية من أي معنى في ذاتها"²⁴. لذلك سميت بمبهمات أو تحولات، ورغم أن الكلمات في اللغة تحيل على مدلول معين، إلا أن المعينات توجد في المعجم الذهني للمتكلمين باللغة دون ارتباطها بمدلول معين.

ونتبين أن اللسانيات التداولية بكل آلياتها لها خاصية استجلاء مكامن الخطاب التربوي، كما تفيد في العملية التعليمية لدى المتلقين بكل أصنافهم.

ونخلص أن المنهج التداولي تعرض لعدّة انتقادات، ولا يمكن الاعتداد به إلا إذا تناول كل القضايا التداولية.

الهوامش

- 1- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة د. سعيد علوش، مركز الانتماء القومي، بيروت، الطبعة الأولى 1986م، ص 8.
- 2- إدريس مقبول، الأسس الابدستمولوجية والتداولية، للنظر النحوي عند سيوييه، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2007م، ص 263.
- 3- عثمان بن طالب، البراغماتية وعلم التراكيب، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، تونس، 1980م، ص 125.
- 4- انظر: طه عبد الرحمن، البحث اللساني والسميائي، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، 1980م، ص 301.
- 5- انظر: مجيد الماشطة، شظايا لسانية، مطبعة السلام، البصرة، العراق، ط1، 2007م، ص 59.
- 6- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 8.
- 7- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد 164، 1992م، ص 8.
- 8- انظر: آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص 30.
- 9- المرجع نفسه، ص 31.
- 10- انظر: آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 31.
- 11- المرجع نفسه، ص 32.
- 12- انظر: أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط1، 1991م، ص 176.
- 13- انظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص 99.
- 14- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003م، ص 155.

- 15- عمر بلخير، إجراءات التحليل التداولي للخطاب،
<https://omarbelkheir.wordpress.com>
- 16- رضوان الرقبي، التداولية المفهوم والتصور، صحيفة المثقف، العدد 4281،
<http://almothaqaf.com>
- 17- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية،
ص 14.
- 18- رضوان الرقبي، التداولية المفهوم والتصور، مرجع سابق.
- 19- المرجع نفسه.
- 20- لويس معلوف، المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط 19،
2010م، ص 610.
- 21- الفرابي عبد اللطيف وآخرون، معجم مصطلحات علوم التربية، دار الخطابي للطباعة
والنشر، المغرب، ط1، 1994م، ص 21.
- 22- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب: عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، رقم: 1376، ج2، ص 524.
- 23- البخاري، صحيح البخاري، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة، الجزائر، ط1،
1992م.
- كتاب الأدب، باب: بَابُ مَا قِيلَ فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ، رقم: 5711، ج5، ص 2251.
- 24- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار
الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، طرابلس، ط1، 2004م، ص 80.